

سيرة المعلّم بطرس البستانيّ وأبرز منجزاته (١٨١٩ - ١٨٨٣)



إنّه أحد أبرز أعلام النهضة العربيّة الحديثة في لبنان والعالم العربيّ. لُقّب بالمعلّم بطرس. وهو أديب، وموسوعيّ، ومُربّ، ومؤرّخ، وأوّل من أنشأ مدرسة وطنيّة عالية وراقية، وأوّل من أنشأ مجلّة هادفة سامية، وأوّل من وضع قاموساً عربيّاً عصريّاً مُطوّلاً، وأوّل من باشر مشروعاً موسوعيّاً باللغة العربيّة. وفضلاً عن ذلك فإنّه رائد المدافعين عن حقوق المرأة، وأكبر المساهمين في وضع أوّل ترجمة عربيّة حديثة للكتاب المقدّس في عهديه القديم والجديد.

نسبه

هو بطرس بن بولس، بن عبدالله، بن كرم، بن شديد، ابن أبي شديد، بن محفوظ، ابن أبي محفوظ البستانيّ اللبناني^١. كان أفراد هذه الأسرة يشتغلون بالزراعة في قرية بقرقاشه في جبل بشريّ، وكان لهم بستان اشتهر بين أرزاق القرية، واشتهر صاحبه حتّى عُرف به فدعيّ البستانيّ. وطراً على العائلة من صروف الدهر ما أجبر الوالد أبا محفوظ على مغادرتها عام ١٥٦٠ مع أولاده الثلاثة: محفوظ، وعبد العزيز، وناصر. قصد محفوظ زهر صفرا في منطقة عكار واستقرّ فيها. أمّا الوالد وولده الآخران فقصدوا دير القمر وأقاموا فيها لفترة طويلة، فتكاثر نسلهم هناك، ثمّ انتقل بعضهم، أوائل القرن الثامن عشر، إلى منطقة إقليم الخروب، واستقرّ بهم المقام أخيراً في الديّة التي أصبح أكثر أهلها من آل البستانيّ^٢.

ولادته ونشأته (١٨١٩ - ١٨٣٠)

وُلد بطرس في تشرين الثاني عام ١٨١٩ في الديّة إحدى بلدات قضاء الشوف. تُوفّي والده وهو في الخامسة من العمر. تلقّى في مسقط رأسه مبادئ العربيّة والسريانيّة مع نسيبه شبلي ابن الخوري يوسف البستاني الذي صار، في ما بعد، المطران بطرس البستاني الشهير^٣. ظهرت عليه أمارات النجابه والذكاء في سنواته الباكرة ما دفع بمعلّمه الخوري ميخائيل البستاني لتقدمه إلى المطران عبدالله

١. البستانيّ، فؤاد افرام، الروائع، المعلّم بطرس البستانيّ، السلسلة الثالثة، عدد ٢٢، المكتبة الشرقيّة، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ١٩٧٥، ص ٦٨.
٢. المرجع نفسه، ص ٦٨-٦٩. يُراجع أيضاً: القيس، فايز علم الدين، أثر المعلّم بطرس البستانيّ في النهضة في لبنان، دار الفارابي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ص ٤٣-٤٤.
٣. المطران بطرس البستاني (١٨١٩-١٨٩٩) هو حفيد شقيق المطران عبدالله البستاني (خوري، يوسف قزما، رجل سابق لعصره، المعلّم بطرس البستاني، ١٨١٩-١٨٨٣، المعهد الملكيّ للدراسات الدينيّة، المملكة الأردنيّة الهاشميّة، عمّان، التوزيع: بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٩٩٥، ص ١١، حاشية رقم ٣). سامه المطران يوسف رزق رئيس مدرسة عين ورقة كاهنًا سنة ١٨٤٢ لدى تخرجه منها. عام ١٨٥٦ سامه البطريك بولس مسعد أسقفًا شرقيًا على عكا ليكون مساعداً للمطران عبدالله البستانيّ على أبرشيّة صور

البستاني^١، رئيس أساقفة صيدا وصور^٢. فتأكد من ذكائه، وأرسله إلى مدرسة عين وَرْقَة، كبرى مدارس ذلك العهد^٣، وهو في الحادية عشرة من عمره.

مدرسة عين وَرْقَة (١٨٣٠ - ١٨٤٠)

قضى بطرس فترة عشر سنوات في عين وَرْقَة، من عام ١٨٣٠ حتى العام ١٨٤٠، تعلّم خلالها قواعد العربيّة والسريانيّة، والتاريخ، والجغرافيا، والحساب؛ فضلاً عن المنطق، والفلسفة، واللاهوت الأدبيّ والنظريّ، وأصول الحقّ القانونيّ. وكان تَعَلَّم اللاتينيّة والإيطاليّة من مناهج المدرسة يومذاك، فأتقن هاتين اللغتين أيضاً. وكان رفيقه في الدراسة، في عين وَرْقَة، نسيبه شبلي، الذي أشرنا إليه في فقرة سابقة، وقد سافر إلى روما للمتابعة هناك بعد أن أكمل دروسه في المدرسة المذكورة^٤. أمّا بطرس فلم يستطع، بعد إنجائه الدراسة في عين وَرْقَة، تحقيق رغبة البطريك المارونيّ آنذاك الذي شاء "إرساله إلى رومية للتضلّع في علوم الدين"، لأنّ والدته لم تقبل بذلك بعد ترحّلها عن ثلاثة بنين، "وبقي هو يُعَلَّم حيث تعلّم، ويجتهد في تحصيل مبادئ الإنكليزيّة، ويهتمّ بقضاء بعض مصالح كان البطريك (يوسف حبيش) ينفذه فيها إلى الجهات، حتى كانت سنة ١٨٤٠، فترك المدرسة وهبط إلى بيروت"^٥.

وصيدا، وأصبح أسقفًا أصيلاً عليها بعد وفاة المطران عبدالله عام ١٨٦٦. اشترى الدارة العائليّة للأمير بشير الثاني الشهابيّ الكبير في أعالي بيت الدين، وجعلها مقرّاً صيفيّاً لإقامته. وقع خلاف شديد بينه وبين رستم باشا، المتصرّف الثالث على متصرّفة جبل لبنان بين العامين ١٨٧٣-١٨٨٣، لأسباب عديدة من أهمها قضية اعتقال رهبان دير مار أنطونيوس فزحًا وسوقهم إلى السجن، مكبلين، ملبسهم الرهبانيّة، ممّا يخالف نصّ المادة ١٧ من بروتوكول ١٨٦٤. نفاه المتصرّف، بناء على أمر عثمانيّ، في الأول من حزيران عام ١٨٧٨ إلى مدينة القدس، وعاد إلى كرسيه الأسقفّي في التاسع من تشرين الثاني من العام نفسه. (رستم، أسد، لبنان في عهد المتصرّفة، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٣، ص ١٦١-١٦٥). ولمزيد من المعلومات المتعلّقة بالمطران بطرس البستاني وخلافه مع المتصرّف، يُراجع: خاطر، لحد، عهد المتصرّفين في لبنان، منشورات الجامعة اللبنانيّة، قسم الدراسات التاريخيّة-١٤، بيروت، ١٩٦٧، ص ٦٦-١٣٧.

١. وُلد المطران عبدالله البستاني عام ١٧٨٠ وتوفاه الله عام ١٨٦٦. تولى أسقفية صيدا وصور بين العامين ١٨٣٧-١٨٦٦. أقام في قرية مشموشة التي سبقه في الإقامة فيها البطريك الحادي والسّتون للطائفة المارونيّة سمعان عوّاد، الذي استمرّت حبريّة ثلاثة عشر عامًا (١٧٤٣-١٧٥٦). بنى، في مقرّ إقامته، مدرسة إكليريكيّة خزّمتها أحداث العام ١٨٦٠. خلفه حفيد شقيقه المطران بطرس البستاني عام ١٨٦٦، على ما مرّ معنا في الحاشية السابقة. (الخوري، شاكر، مجمع المسرّات، قدّم له الياس القطّار، دار لحد خاطر، بيروت، طبعة ثانية، ١٩٨٥، ص ٣٣ (طبعة أولى ١٩٠٨)؛ خوري، يوسف قرّما، رجل سابق لعصره، المعلّم بطرس البستاني، ١٨١٩-١٨٨٣، مرجع سابق، ص ١١).

٢. كانت أبرشيّة صيدا وصور تضمّ، في تلك الفترة: أ- مدينة صيدا ومحيطها وأقضية الشوف وجزّين والبقاع الغربيّ ومرجعيون وحاصبيّا، فضلاً عن الجولان في سوريا، ومنطقتي الحولة وبانياس. ب- مدينة صور ومحيطها حتّى فلسطين والأراضي المقدّسة. وفي عهد المطران بولس بصوص (١٩٠٠-١٩١٨)، فُسّمت الأبرشيّة إلى قسمين: أ- أبرشيّة صيدا ومقرّها في مدينة صيدا، وتبعها المناطق المذكورة في الفقرة أ السابقة، لكن اقتطع منها البقاع الغربيّ في عهد المطران إبراهيم الحلو (١٩٧٥-١٩٩٦)، وألحق بأبرشيّة زحلة المنشأة حديثاً. ب- أبرشيّة صور ومقرّها مدينة صور، وتبعها المناطق المذكورة في الفقرة ب السابقة. وفي عهد المطران طانيوس الخوري (١٩٩٦-٢٠٠٦)، اقتطع قضاء مرجعيون وحاصبيّا من أبرشيّة صيدا، وضُمّا إلى أبرشيّة صور تعويضاً لها عن مناطق فلسطين والأراضي المقدّسة التي فُصلت وأقيمت أبرشيّة مستقلة.

٣. البستانيّ، فؤاد افرام، الروائع، المعلّم بطرس البستانيّ، مرجع سابق، ص ٦٩. يُراجع أيضاً: القيس، فايز علم الدين، أثر المعلّم بطرس البستاني في النهضة الوطنيّة في لبنان، مرجع سابق، ص ٤٤.

٤. البستانيّ، فؤاد افرام، الروائع، المعلّم بطرس البستانيّ، مرجع سابق، ص ٦٩.

٥. مرجع نفسه، ص نفسها.

بيروت والقنصليّتان الإنكليزيّة والأميريكيّة (١٨٤٠ - ١٨٤٤)

قصد بطرس مدينة بيروت طلباً للرزق، وفيها اتّصل بالإنكليز وعمل لديهم بصفة ترجمان في القنصليّة الإنكليزيّة. في هذه الأثناء كان الإنكليز يتحضّرون، مع بعض الدول، لإجبار إبراهيم باشا المصريّ على الجلاء عن لبنان وسوريا، وللقضاء على حليفه الأمير بشير الثاني الشهابيّ الكبير. ويعود سبب اتّصاله بالإنكليز إلى أنّ "أمثاله من الشباب المثقّف ثقافته في ذلك الوقت لا يجدون مجالاً لمواهبهم أفضل من العمل في القنصليّات أو الإرساليّات الأجنبيّة".^١

في هذه الفترة أيضاً، اتّصل بالمُرسلين الأميركيين، وقدم لديهم طلباً "للعمل معهم مدرّساً للغة العربيّة. وكان المُرسَلون (الأميريكيون) في ذلك العهد يقاسون عذاباً شديداً في التفتيش عن معلّمين يليقون لتعليم اللغة العربيّة". لكنّ رغبته هذه لم تتحقّق "لأنّ أعضاء الإرساليّة غادروا بيروت بسبب الحرب" التي اندلعت عام ١٨٤٠ بين الدول الأوروبيّة المتحالفة مع تركيا وهي: إنكلترا، والنمسا، وبروسيا، من جهة؛ والجيش المصريّ بقيادة إبراهيم باشا- الميسّطر وقتذاك على سوريا ولبنان- من جهة ثانية. أرسلت الدول الأوروبيّة سفنها إلى لبنان لإجبار إبراهيم باشا على الخروج. وبعد انتصار الإنكليز، وخروج المصريّين من لبنان، عاد المُرسَلون إلى بيروت في أوائل تشرين الثاني من العام ذاته، وأعادوا فتح مدرستهم في المدينة، فالتحق المعلّم بطرس مدرّساً للغة العربيّة فيها، وتوطّدت علاقته معهم. في هذا الوقت أيضاً عاد كبيرهم الدكتور كوزنيليوس فاندريك^٢، فتعرّف إلى البستاني، ونشأت بينهما علاقة مودّة وصداقة، وسكننا معاً في منزل واحد، وكانا لا يزالان عازبين. والبيت الذي أقاما فيه، في بيروت، هو بيت القسّ الأميركيّ Eli Smith (الذي عرّب اسمه فأصبح عالي سميت)، وكان حينها خارج لبنان^٣. وقد قدّر لهذه العلاقة أن تُثْمِر ثماراً كثيرة، وأن تدوم حتّى وافى

١. حوراني، ألبرت، الفكر العربيّ في عصر النهضة، ١٧٩٨-١٩٣٩، ترجمه إلى العربيّة كريم عزقول، دار النهار للنشر، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٦، ص ١٢٧.
٢. حوري، يوسف فرما، رجل سابق لعصره، المعلّم بطرس البستاني، ١٨١٩-١٨٨٣، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٥، ص ١٣-١٤. يُراجع أيضاً: القيس، فايز علم الدين، أثر المعلّم بطرس البستاني في النهضة في لبنان، مرجع سابق، ص ٤٦، ٦٣.
٣. هو الدكتور كوزنيليوس فان آلان فاندريك (Cornelius Van Allen Van Dyck). وُلد في مدينة كيندر هوك في ولاية نيويورك في الولايات المتحدة الأميركيّة في ١٣ آب ١٨١٨، وهو الابن السابع والأخير لأبوين يرجع أصلهما إلى إحدى العائلات الهولنديّة، التي هاجرت إلى الولايات المتحدة في القرن السادس عشر. أتقن، منذ صغره، لغات عدة كاللواتينية واللاتينية، فضلاً عن لغتيّته الأصليتين الإنجليزيّة والهولنديّة. كان أبوه طبيباً، ويمتلك صيدليّة في نيويورك، فدرس الولد الطبّ عليه، وكان يعاونه في صيدليّته، فبرع في الصيدلة علماً وعملاً. تلقى دروساً في الطبّ في مدرسة سيرنغفيلد، ثمّ أكمل دروسه في معهد جيفرسن الطيّب في فيلادلفيا، ونال منه شهادة الدبلوما والرّتبة الدكتورائيّة في الطبّ. أتى إلى لبنان بتاريخ ٢ نيسان ١٨٤٠ مُرسّلاً من جانب المشيخيين الأميركيين (البريسبيتريين) وهو في الحادية والعشرين من عمره. وفي بيروت تعرّف بالمعلّم بطرس البستاني، والشيخ ناصيف اليازجي، والشيخ يوسف الأسير الأزهرّي، ودرس عليهم العربيّة وأتقنها حتى صار من المبرزين فيها. يعود الفضل إليه في تأسيس الكليّة السوريّة الإنجليّة في بيروت، والتي أصبحت، في ما بعد، الجامعة الأميركيّة. ظلّ يمارس نشاطه العلميّ والتعليميّ والخيريّ في لبنان حتّى وافاه الأجل في ١٨ تشرين الثاني ١٨٩٥ عن سبعة وسبعين عاماً، بعد أن أُصيب بجمّتيّ التيفويد التي لازمته أيّاماً معدودة. دُفن في المقبرة الأميركيّة في بيروت، بعد أن صُلّي على جثمانه باللغة العربيّة في الكنيسة الإنجليّة فيها، حسب وصيّته. (مُراجع: رستم، أسد، لبنان في عهد المتصرّفيّة، مرجع سابق، ص ٢٣٩-٢٤١؛ الحاج، كمال يوسف، المؤلّقات الكاملة، المجلّد الحادي عشر، في الفلسفة اللبنانيّة (٢)، بيت الفكر، أسبسيّة كمال يوسف الحاج، الطبعة الأولى، حوتيه - لبنان، ٢٠١٣، ص ١١١ موجزاً ٩١٨-٩٢٩؛ حتّي، فيليب، لبنان في التاريخ، منذ أقدم العصور التاريخيّة إلى يومنا هذا، ترجمة أنيس فريجه، مؤسسة فرنكلين للمساهمة للطباعة والنشر، بيروت- نيويورك، ١٩٥٩، ص ٥٦٣-٥٦٤؛ دي طرازي، فيليب، تاريخ الصحافة العربيّة، ج ١، المطبعة الأدبيّة، بيروت، ١٩١٣، ص ١٤٤-١٥٠).

٤. سيف، أنطوان، ثلاثة حكماء من جبل لبنان، بطرس البستاني- كمال جنبلاط - عادل إسماعيل، مؤسسة أنطوان الجليخ للطباعة والتجليد، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٩، ص

بطرس الأجل. وفي العام التالي، ١٨٤١، تعرّف برئيس المبشرين الأميركيين، عالي سميث^١، الذي قدم بدوره إلى بيروت، آتياً من القدس، ليشرف على المطبعة الأميركية التي تأسست في مالطا أولاً، ثم نُقلت إلى بيروت عام ١٨٣٤^٢. وكان الرجلان متعمّقين في أمور العقائد الدينية، فكثرت المحاورات والمناقشات بينهما حول مسائل دينية مسيحية كثيرة هي مثار خلاف ونزاع شديد بين الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتية، وقد أدت تلك المحاورات والمناقشات إلى تحوّل البستاني عن إيمانه الكاثوليكي واعتناقه مذهب المرسلين الأميركيين الإنجيلي^٣. ومن أبرز منجزات البستاني، في هذه الفترة، ترجمته إلى العربية مقالات كان سميث قد كتبها باللغة الإنكليزية وشرح فيها عقيدة المذهب الإنجيلي. وقد حملت ترجمة البستاني عنوان "الباب المفتوح في عمل الروح" (بيروت، ١٨٤٣)^٤.

زواجه

تزوَّج البستاني، عام ١٨٤٤، فتاة أرثوذكسية هي راحيل عطا. ونظراً لما لهذه المرأة من تميّز - في نشأتها الباكورة، وفي إنجابها لعائلة كبيرة ومميّزة، وفي تربيتها لعائلتها، وفي معاضدتها الدائمة لزوجها - ولما يمكن أن تمثّله من قدوة للكثيرات من بنات جنسها، رأينا أن نُفرد لها فقرة خاصة في هذه السيرة.

هي من مواليد بيروت عام ١٨٢٦. تبنّتها سارة زوجة عالي سميث عام ١٨٣٤ وضمّتها إلى أفراد عائلتها. وهي الفتاة الأولى التي التحقت بالمدرسة التي أسّستها هذه السيّدة في المدينة. وبعد وفاة سارة عام ١٨٣٦ انتقلت إلى كنف عائلة أميركية أخرى، فإلى كنف عائلة أميركية ثانية، ثم إلى كنف زوجة سميث الثانية. انضمت إلى الكنيسة الإنجيلية في السبت الأخير من كانون الثاني ١٨٤٣. وقد رفضت طلب حاكم بيروت بالعودة إلى منزل والدتها، رفضاً منها للفساد التي كانت ترسف الوالدة فيه، مختارة البقاء مع عائلة عالي سميث. رزقها الله، من زواجها، أربعة بنين وخمس بنات. أما عدد الأحفاد فقد بلغ ثمانية عشر حفيداً. توفيت عام ١٨٩٤، ونعتها نشرة الإنجيليين الأسبوعية في العدد ١٤٦٤ تاريخ ١٧ شباط ١٨٩٤ (ص ٥٦)، كما نشرت النشرة الـ "خطاب في الاحتفال التذكاري" في العدد ١٤٧٤ تاريخ ٢٨ نيسان ١٨٩٤^٥.

١. عالي سميث (Eli Smith 1801-1857) : هو "أميركي الأصل وُلد في ولاية كونيتيكت، في بلدة نورث فورد. انضم إلى المشيخيين البروتستانت بعد أن درس الكهنوت، وتطوّع للعمل في الخارج". أرسل إلى مالطا عام ١٨٢٠ ليشرف على المطبعة الأميركية فيها. ثم قدم إلى بيروت عام ١٨٢٧، وهو من أوائل المبشرين الأميركيين الذين أتوا هذه البلاد. وفي طليعة النشاطات التي عمل عليها في بيروت مباشرته بترجمة الكتاب المقدس، بعهديه، إلى اللغة العربية، وقد عاونته المعلم بطرس في عمله هذا، لكنه توفّي عام ١٨٥٧ قبل أن يتمكن من إنجاز الترجمة. (القيس، فايز علم الدين، أثر المعلم بطرس البستاني في النهضة في لبنان، مرجع سابق، ص ٤٧). وعند وفاته "لم يكن طبع من أسفار الكتاب المقدس سوى سفر التكوين و ٣٩ إصحاحاً من سفر الخروج". (خوري، يوسف فرما، رجل سابق لعصره، المعلم بطرس البستاني، ١٨١٩-١٨٨٣، مرجع سابق، ص ٣٥).
٢. حتّى، لبنان في التاريخ، منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا، مرجع سابق، ص ٥٥٥.
٣. القيس، فايز علم الدين، أثر المعلم بطرس البستاني في النهضة في لبنان، مرجع سابق، ص ٤٨.
٤. خوري، يوسف فرما، رجل سابق لعصره، المعلم بطرس البستاني، ١٨١٩-١٨٨٣، مرجع سابق، ص ١٥.
٥. المرجع نفسه، ص ٢٨-٣٠. عُرف من أبناء المعلم بطرس وزوجته راحيل: سليم، ونسيب، ونجيب، وأمين؛ ومن بناتها: إديليد، وأليس، وسارة (المرجع نفسه، ص ١٣١، حاشية رقم ٤). أما الابنة الرابعة فهي لوزا، وقد اقترن بها، عام ١٨٧٣، خليل سركيس "صاحب امتياز "لسان الحال" ومجلة "المشكاة" (دي طراز، فيليب، تاريخ الصحافة العربية، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ١٢٩). ولم تُوفّق في معرفة اسم الابنة الخامسة منه.

حاصبيًا وعبيه (١٨٤٤ - ١٨٤٨)

توطّدت علاقات المعلم بطرس بالمُرسلين الأميركيين، ويات محلّ ثقّتهم. ونشط هو في صفوف كنيستهم كواحد منهم: تبشيرًا، وتعليمًا، وتألّيًا. وفي مطالع آذار عام ١٨٤٤، أثناء مرض عالي سميث، انثدب، مع زميل آخر له هو الياس فوّاز^١، لتأسيس مدرسة في حاصبيًا، جنوبيّ لبنان. وكانت جماعة من طائفة الروم الأرثوذكسيين، في هذه البلدة، قد انضمت إلى المذهب الإنجيلي، وشرعت تطالب بإنشاء مدرسة لهم في بلدتهم^٢. فتوجّها إلى هناك، وأسّسا المدرسة الإنجيليّة، وتولّيا التدريس فيها، وراحا يعلمان أبناء الكنيسة الإنجيليّة الصلاة، والوصايا العشر، ومبادئ الإنجيليين الأساسيّة. أمّا موادّ التدريس فكانت تقتصر "على القراءة العربيّة، والحساب، والإنكليزيّة، ومادّة الأشياء. وكانت تخرّج تلاميذ بمستوى المرحلة الابتدائيّة في عصرنا الحاضر". واستمرّ في مندوبيّته في حاصبيًا مدّة سبعة أشهر، حتّى الأوّل من تشرين الأوّل من العام نفسه. لكنّه ظلّ "يشرف على الأعمال التبشيريّة في حاصبيًا، ما اضطرّه للقيام بزيارة ثانية في ١٨ حزيران ١٨٤٥". وقد تميّزت مدرسة حاصبيًا بفرادة خاصّة بين قريناتها من مدارس المرسلين، إذ كانت تنفرد وحدها بتعليم اللغة الإنكليزيّة^٣.

وفي صيف العام ١٨٤٣، قرّر المرسلون الانتقال إلى جبل لبنان، على "أن تكون عبيه مركز انطلاقهم، لأنّها كانت قرية كبيرة عامرة صحيّة، وفيها أخلاط من الدرور والموارنة والروم الأرثوذكس وبعض الكاثوليك، ولأنّها كانت وسطًا بين بلاد الدرور وبلاد النصارى". فانتقلوا إلى هناك وأنشأوا مدرسة لهم. وبسبب الأحداث الدمويّة التي حصلت عام ١٨٤٥، بين الدرور والمسيحيين، أقفلت المدرسة أبوابها. لكنّ المرسلين قرّروا العودة إليها بعد استباب الأمن، فأعادوا افتتاحها وجدّدوا نظامها في ربيع العام ١٨٤٦، وقرّروا أن تكون "العربيّة لغة التدريس، وأن يكون طلابها من مختلف طوائف الجبل". وانثدب كلّ من فاندريك والمعلم بطرس لتنفيذ تلك المهمّة. الأوّل لإتقانه العربيّة وإجادتها كواحد من المبرزين فيها، والثاني للخبرة التي تكوّنت لديه نتيجة ممارسته التدريس^٤. فتوجّها إلى عبيه في ربيع العام ١٨٤٦، وباشرا المهمّة الموكلة إليهما، فكانا يتولّيان التعليم بالعربيّة في النهار، وينصرفان في الليل إلى وضع الكتب للتلامذة. وفي عبيه وضع المعلم بطرس أوّل كتاب له وهو: "كشف الحجاب في علم الحساب" الذي طُبِع في بيروت عام ١٨٤٨، وقد استعان "على تأليفه بكتاب الحساب الذي ألفه عالي سميث للمدارس الإرساليّة، وهو عبارة عن كتاب مُطوّل في علم الحساب طُبِع مرارًا في

١. الياس فوّاز (١٨٠٣ - ١٨٧٨) "مبشّر وطنيّ لبنانيّ من حاصبيًا. وهو من أوائل الذين اعتنقوا المذهب الإنجيليّ في حاصبيًا. ارتحلت عائلته بعد أحداث ١٨٦٠ إلى دير ميماس، ومن ثمّ إلى بيروت. وعند وفاته كان برتبة شيخ في الكنيسة الإنجيليّة في بيروت" (القيس، فايز علم الدين، أثر المعلم بطرس البستانيّ في النهضة في لبنان، مرجع سابق، ص ٦٤).

٢. القيس، فايز علم الدين، أثر المعلم بطرس البستانيّ في النهضة في لبنان، مرجع سابق، ص ٤٩. ويشير مؤلّف هذا الكتاب إلى أنّ المدرسة "الملّكورة في حاصبيًا ما زالت قائمة حتّى يومنا هذا، تزيّن جدرانها الداخليّة صور المبشرين الأوائل، ومنهم المعلم بطرس البستانيّ"، ويذكر أيضًا أنّه، هو نفسه، خزيح هذه المدرسة في عهد القسّ إبراهيم داغر، رئيس الكنيسة الإنجيليّة، والمتوفّي في بيروت عام ١٩٨٣: المرجع نفسه، ص ٥٠.

٣. المرجع نفسه، ص ٦٥ - ٦٦. يُراجع أيضًا: حوري، يوسف قرما، رجل سابق لعصره، المعلم بطرس البستانيّ، ١٨١٩ - ١٨٨٣، مرجع سابق، ص ١٦ - ١٧.

٤. المرجع نفسه، ص ٦٦ - ٦٧. وحول برنامج التدريس في مدرسة عبيه، وطريقة التعليم فيها، ومستواها العلميّ، والأثر التربويّ الذي تركته، يُراجع المرجع نفسه، ص ٦٧ - ٦٨. وحول تأسيس مدرسة عبيه وانتداب البستانيّ وفاندريك للتدريس فيها، وتحديد نظامها، وموادّ التدريس فيها، وعدد الطلاب المتحقّقين، يُراجع أيضًا: حوري، يوسف قرما، رجل سابق لعصره، المعلم بطرس البستانيّ، ١٨١٩ - ١٨٨٣، مرجع سابق، ص ٢٠ - ٢٢.

سائر المدن السورّيّة". وفيها أيضًا وضع كتابه الآخر في نحو اللغة العربيّة "بلوغ الأرب في نحو العرب"^١ والذي لم يُطبع. وفي عيبه وُلد ابنه البكر سليم الذي أصبح، عند بلوغه، مساعده الأكبر في جميع المشاريع التي أراد القيام بها.

في العام ١٨٤٨، وبعدها أمضى البستاني فترة سنتين في مدرسة عبيه، عاد إلى بيروت، وتولّى وظيفة ترجمان في القنصليّة الأميركيّة في المدينة. ولم يمضِ وقت طويل على تولّيه مهام الترجمة هذه، حتّى تكاثرت أعماله: من إلقاء الخطب، إلى عقد الجمعيات، إلى المساهمة في ترجمة أسفار الكتاب المقدّس كمساعد لعالي سميث الذي كان قد باشر الترجمة إلى العربيّة من اللغتين الأساسيتين: العبريّة واليونانيّة، وكان المعلّم بطرس قد أتقن هاتين اللغتين قبل ذلك^٢.

تأسيس الكنيسة الإنجيليّة الوطنيّة في بيروت (١٨٤٨)

الكنيسة الإنجيليّة الأولى في بيروت كانت تتألّف، سنة ١٨٢٥، من تسعة أشخاص هم: أسعد الشدياق، وطّوس الحدّاد، والمطران يعقوب والمطران كزيات (وهما أسقفان أرمنيّان) وزوجتاهما، (ويوحنا) وزيّبات (وكان كاهنًا أرمنيًا أيضًا)، ومدام أبوت، ومدام قنصل إنكلترا. هذه كانت نواة الكنيسة الإنجيليّة الأولى في بيروت^٣. وبعد اعتناق المعلّم بطرس المذهب الإنجيلي عام ١٨٤١، وبعد النشاط الكبير الذي بذله في صفوف الإنجيليين، سعى مع فريق من أصدقائه الوطنيّين، المعتنقين لهذا المذهب، إلى تأسيس كنيسة إنجيليّة وطنيّة لا تكون مرتبطة بالمرسّلين الأميركيّين. وقد تنادى الإنجيليون الوطنيّون، وكان عددهم قد بلغ ستة وعشرين، إلى عقد اجتماع في ١٠ تمّوز عام ١٨٤٧، وأوكلوا رئاسته إلى البستاني، وقدموا "عرضة إلى المرسّلين يطلبون فيها تشكيل كنيسة إنجيليّة مستقلّة" يكون لها قوانينها وأنظمتها الخاصّة. وبعد مداوات عديدة، كان لهم ما أرادوا، و"تأسّست أوّل كنيسة إنجيليّة في العالم العربيّ [في ربيع] سنة ١٨٤٨، وعُرفت منذ ذلك الحين باسم الكنيسة الإنجيليّة الوطنيّة في بيروت"^٤. ومنذ هذا التاريخ، وعلى الرغم من عدم اهتمامه "بالحصول على أية وظيفة دينيّة"، غدا البستاني "ركنًا من أركان عمدة الكنيسة" الإنجيليّة الوطنيّة، ومن أبرز الناشطين في صفوفها^٥. فخدم أوّلًا كمعلّم في "مدرسة الأحد"، يخطب فيها ويلقي العظات، ثمّ أصبح رئيسًا لها "مدّة طويلة. وآخر موعظة وعظها [كانت] تحت عنوان قول المرثم: "فرحت بالقائلين لي إلى بيت الربّ نذهب"^٦. وبعد سنوات طويلة، وفي حفل

١. المرجع نفسه، ص ٦٨. يُراجع أيضًا: داغر، يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبيّة، الجزء الثاني، الفكر العربيّ الحديث في سير أعلامه، الراحلون (١٨٠٠-١٩٥٥)، منشورات الجامعة اللبنانيّة، قسم الدراسات الأدبيّة، بيروت، لا طبعة، ١٩٨٣، ص ١٨٢.

٢. القيس، فايز علم الدين، أثر المعلّم بطرس البستاني في النهضة في لبنان، مرجع سابق، ص ٦٩. يُراجع أيضًا: خوري، يوسف فرما، رجل سابق لعصره، المعلّم بطرس البستاني، ١٨١٩-١٨٨٣، مرجع سابق، ص ٣٤.

٣. الحاج، كمال يوسف، المؤلّفات الكاملة، المجلّد الحادي عشر، في الفلسفة اللبنانيّة (٢)، مرجع سابق، ١١/موجز\٩١٤.

٤. مرجع نفسه، ١١/موجز\٩١٥-٩١٦. و تاريخ ١٠ تمّوز ١٨٤٧، تاريخ اجتماع الإنجيليين الوطنيّين الأوّل الذي يورده الحاج، يرد، عوضًا عنه، تاريخ ١٠ حزيران من العام نفسه عند آخرين ومنهم القيس في مؤلّفه عن المعلّم بطرس البستاني (مرجع سابق، ص ٥١)، ويوسف فرما خوري في كتابه ص ٣٦.

٥. القيس، فايز علم الدين، أثر المعلّم بطرس البستاني في النهضة في لبنان، مرجع سابق، ص ٥١. يُراجع أيضًا: خوري، يوسف فرما، رجل سابق لعصره، المعلّم بطرس البستاني، ١٨١٩-١٨٨٣، مرجع سابق، ص ٣٧.

٦. مرجع نفسه، ص ٦٤. يُراجع أيضًا: خوري، يوسف فرما، رجل سابق لعصره، المعلّم بطرس البستاني، ١٨١٩-١٨٨٣، مرجع سابق، ص ٣٧.

"تدشين البناء الجديد للكنيسة الوطنية الإنجيليّة في بيروت سنة ١٨٦٧"، كان البستاني بين خطبائه البارزين^١، ممّا يدلّ على علوّ مكانته في صفوف أبناء كنيسته والقائمين عليها.

الجمعيّة السورّيّة (ابتداءً من العام ١٨٤٧)

هي جمعيّة فكريّة، وأدبيّة، وسياسيّة، واجتماعيّة، تأسّست في بيروت عام ١٨٤٧. ويرجح د. أنطوان سيف أن تكون هذه الجمعيّة هي نفسها "بجمع التهذيب" الذي أنشأه البستاني عام ١٨٤٥، والذي عمد الأميركيّون إلى تنقيح مبادئه في ما بعد. وكان الجمع يضمّ ثلاثة عشر عضوًا، بينهم أميركيّان فقط أحدهما فاندليك، وجميعهم من المذهب الإنجيليّ باستثناء الشيخ ناصيف اليازجي المارونيّ. ولقد انضمّ سميث، الذي لم يكن في بيروت عند تأسيس "الجمع"، إلى الجمعيّة بعد قدومه من الولايات المتّحدة^٢. ولقد أدّى المعلّم بطرس دورًا نشيطًا في تحقيق نهضتها حتّى أصبحت جمعيّة منتظمة. فكان ينزل من عيبه - يوم كان لا يزال يعلّم في مدرستها - إلى بيروت ليخطب فيها وينشّط عملها، حتّى أصبح من أبرز خطبائها، و"من أنشط عناصرها، ومن أغزر محرّري صحافتها". وقد استمرّ في نشاطه فيها لسنوات طويلة جدًّا، وفيها ألقى خطبه المشهورة حول: "تعليم النساء" (١٤ كانون الأوّل ١٨٤٩)، و"آداب العرب" (١٥ شباط ١٨٥٩)، و"الهيئة الاجتماعيّة والمقابلة بين العوائد العربيّة والفرنجيّة" (١١ أيار ١٨٦٩). زدّ على ذلك "المقالات الأسبوعيّة التي كان يزوّد بها صحيفة المُرسَلين" النشرة. وكان رقمه التراتبيّ في الجمعيّة الرابع عشر^٣. ويورد يوسف قرما خوري، في كتابه عن البستانيّ، تفاصيل عديدة تتناول مواعيد عقد الجمعيّة لاجتماعاتها، والعدد الإجماليّ لهذه الاجتماعات بين العامين ١٨٤٧ وأواخر ١٨٥١، فضلًا عن جلساتها المفتوحة، وعدد "الخطب والنبد" التي أُلقيت في هذه الاجتماعات، والتي نشرها في "أعمال الجمعيّة السورّيّة". وتشتمل هذه المنشورات، عدا خطاب تعليم النساء، على مقالتين له هما: "الحريري" و"في مدينة بيروت"، وعلى تلخيص نبذة "اكتشاف جديد" لأنطونيوس أميونيّ حول سبب النحاس بالكهربائيّة^٤، وعلى تلخيص مقالة فاندليك "أمالي فلكيّة"^٥. وعلاوة على ذلك كلّه، تولّى أمانة سرّ اللجنة الخاصّة التي تألّفت في بيروت، خريف العام ١٨٥٥، للإشراف على المدارس الستّ التي أسّسها الأميركيّون والإنكليز في مناطق عاليه، والمتن، والشوير، وصيدا، وحاصبيّا، والتي صارت تُعرّف باسم "المدارس اللبنانيّة". وقد ضمّت اللجنة المذكورة "فنصليّ أميركا وإنكلترا، وجون لوثيان، وسليمان والياس الصليبي، وممثّل عن المرسلين الأميركيّين، وعضوين آخرين"^٥.

١. القيس، فايز علم الدين، أثر المعلّم بطرس البستانيّ في النهضة في لبنان، مرجع سابق، ص ٥١. يُراجع أيضًا: خوري، يوسف قرما، رجل سابق لعصره، المعلّم بطرس البستانيّ، ١٨١٩-١٨٨٣، مرجع سابق، ص ٣٧.
٢. سيف، أنطوان، ثلاثة حكماء من جبل لبنان، مرجع سابق، ص ٦٧. ولزيد من المعلومات حول الجمعيّة وتأسيسها وعدد أعضائها وتراثيبتهم، ودستورها، واجتماعاتها، يُراجع: خوري، يوسف قرما، رجل سابق لعصره، المعلّم بطرس البستانيّ، ١٨١٩-١٨٨٣، مرجع سابق، ص ٢٣-٢٥.
٣. القيس، فايز علم الدين، أثر المعلّم بطرس البستانيّ في النهضة في لبنان، مرجع سابق، ص ٤٩.
٤. خوري، يوسف قرما، رجل سابق لعصره، المعلّم بطرس البستانيّ، ١٨١٩-١٨٨٣، مرجع سابق، ص ٢٥.
٥. الصليبي، كمال، تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر، بيروت، الطبعة السابعة، ١٩٩١ (الطبعة الأولى ١٩٦٧)، ص ١٧٧-١٧٨.

ترجمة الكتاب المقدّس (ابتداءً من العام ١٨٤٨)

كان التبشير والكرازة من جملة الأسباب التي دفعت بالمبشّرين الأميركيّين للقدوم إلى لبنان. وكانوا في تبشيرهم يعتمدون، أوّل قدمهم عام ١٨٢٢ وحتى العام ١٨٥٧، "الكتاب المقدّس أو أسفاراً منه كانوا قد أعادوا طبعها منقّحة عن النسخة المترجمة التي كان قد نقّحها المطران سركيس الرّبي (١٥٦٧؟-١٦٣٨)، مطران الموارنة في دمشق، وطُبِعَتْ في رومية عام ١٦٧١ م عن النسخة الأصليّة التي تُعرَف بالفولكاتا (vulgate)^١. وهذه النسخة التي اعتمدها، أو اعتمدوا أسفاراً منها، تُعرَف ب"بروباغندا روما" وهي ذات لغتين: اللاتينيّة (وفق نصوص Vulgate) والعربيّة^٢. لكنّ المرسلين لم يجدوا فيها ما يفي بغرضهم، لأنّ النصّ اللاتينيّ الذي استندت إليه هو "المعتمد لدى الكنيسة الكاثوليكيّة آنذاك"، وهو مغاير، "في بعض أجزائه"، لذلك الذي تعتمده "الكنيسة البروتستانتية الأميركيّة". وفضلاً عن ذلك، "فإنّ بروباغندا روما"، وإن تكن قد "سحلت توحيداً للنصّ اللاهوتي"، غير أنّها لم تتمكن من "توحيد النصّ العربيّ" ولا من "صياغته صياغة حديثة متماسكة"، كما أنّها لم "تسجّل تقدّمًا ملحوظًا على مستوى اللغة العربيّة تركيبيًا وأداءً"^٣. لذلك كلّه استقرّ رأيهم على ضرورة إنجاز ترجمة عربيّة جديدة.

أمّا أولى مبادراتهم، على هذا الصعيد، فكانت في العام ١٨٤٤، عندما طلب المرسل عالي سميث "من الجمع الأميركيّ للتبشير في بوسطن، الموافقة على ترجمة الكتاب المقدّس إلى العربيّة". وفي التقرير الذي رفعه إلى الجمع، عدّد ما لهذا العمل من فوائد إذا ما أُعطيت الترجمة الميزة الوطنيّة. وفي العام ١٨٤٧، وبعد موافقة مجمع بوسطن، تألّفت لجنة قوامها ثلاثة من كبار المرسلين: عالي سميث رئيسًا، وكورنيلوس فاندريك ووليم طومسون عضوين، تكون مهمّتها المباشرة بالترجمة. فقرّرت أن يعاونها، في عملها، أحد أعضاء "الإرساليّة السوريّة" يكون في غاية التضلّع من اللغة العربيّة. وقدرت أيضًا أن تتمّ الترجمة مباشرة عن العربيّة، لغة العهد القديم، وعن اليونانيّة، لغة العهد الجديد الأصليّة. ولم تجد اللجنة ضالّتها إلّا في البستاني^٤.

ذكرنا، في فقرة سابقة، أنّ المعلّم بطرس ترك مدرسة عبيه وقصد بيروت عام ١٨٤٨، حيث التحق بالانصليّة الأميركيّة وعمل فيها كمتّرجم، وبدأ معاونة عالي سميث في ترجمة الكتاب المقدّس. وذكرنا كذلك إتقانه للعربيّة واليونانيّة اللتين كُتبتَ بهما أسفار الكتاب المقدّس. وكان، قبل ذلك، قد ألمّ إلمامًا جيّدًا بالسريانيّة واللاتينيّة أيام مدرسة عين ورفقة. وفي هذه الفترة "أخذ يتزوّد من معرفته" هاتين اللغتين الأخيرتين. وهكذا فقد غدا متقنًا للغات القديمة "التي كُتبتَ بها أقدم نصوص الكتاب المقدّس"^٥. ولا حاجة بنا إلى ذكر براعته في العربيّة، إذ إنّها في طليعة الأسباب التي جعلت المرسلين يُلحِقونهم بهم، ويُقبِلون على تعلّم العربيّة على يديه. فيكون بذلك قد

١. خوري، يوسف قرما، رجل سابق لعصره، المعلّم بطرس البستاني، ١٨١٩-١٨٨٣، مرجع سابق، ص ٣٠-٣١.

٢. الرّيجاني، أمين ألبرت، الترجمات العربيّة للكتاب المقدّس وأثرها في حركة النهضة العربيّة، محاضرة أُلقيت في الجامعة الأميركيّة في بيروت، ٢ تشرين الثاني ٢٠١٥، ص ١٢. ولزبد من المعلومات حول "بروباغندا روما"، يُراجع المرجع نفسه ص ١٢-١٣.

٣. الرّيجاني، أمين ألبرت، الترجمات العربيّة للكتاب المقدّس وأثرها في حركة النهضة، مرجع سابق، ص ١٣، و ١٧.

٤. القيس، فايز علم الدين، أثر المعلّم بطرس البستاني في النهضة في لبنان، مرجع سابق، ص ١٢١-١٢٢.

٥. المرجع نفسه، ص ١٢٢. يُراجع أيضًا: خوري، يوسف قرما، رجل سابق لعصره، المعلّم بطرس البستاني ١٨١٩-١٨٨٣، مرجع سابق، ص ٣٤.

أتمّ العمدة اللازمة التي تجعل منه ممتلئاً لصفات المترجم المتميز. فكان يترجم مباشرة عن النصوص في لغاتها الأصلية، وكلّما أنجز قسمًا من الترجمة يسلمه إلى عالي سميث الذي يعمد إلى التدقيق فيه بنفسه، ثمّ يتناقشان معًا "في معاني بعض الكلمات أو المصطلحات، ثمّ يقارنان ما أنجزه بالأصل العبري، أو السرياني، أو اللاتيني". وبعد الفراغ من ذلك كلّ، يُسَلَّم العمل إلى الشيخ ناصيف اليازجي المصحّ اللغوي والمدقّق في "مطبعة الأميركان". وكان على هذا الأخير أن يثبت التنقيح الثاني للترجمة، الذي يكون قد أنجزه وسميث، على صفحة خاصّة مقابلة لتلك التي ترجمها البستاني^١.

استمرّ البستاني في العمل، على هذا المنوال، حتّى العام ١٨٥٧، وتوقّف بعده بسبب وفاة عالي سميث في الحادي عشر من كانون الثاني من العام ذاته، لأنّ العقد الموقّع بينهما ينصّ على بطلانه في حال وفاة أحد طرفيه.

بعد فترة من وفاة عالي سميث، انتدب الدكتور فانديك لإكمال الترجمة^٢. والذي انتدبه لهذه المهمة هو مجمع بوسطن، الذي سبق له أن انتدب سميث للمباشرة بأعمال الترجمة. تمّ انتدابه في الحادي عشر من نيسان عام ١٨٥٧. وبعد أن تسلّم "مسؤوليته الجديدة، استغنى عن خدمات اليازجي"، واستعان بالشيخ يوسف الأسير الأزهري^٣، مصحّحًا ومنقّحًا. كما "استغنى عن خدمات بطرس البستاني"، ولم يجدّد معه العقد الذي كان قد انتهى بينه وبين سميث بمجرد وفاة الأخير^٤.

قام فانديك بمراجعة ما كان سلفه قد أنجزه بمعاونة مساعديه اللبنانيين، البستاني واليازجي، وأكمل ترجمة باقي الأسفار في الكتاب المقدّس. وفور فراغه من الترجمة، بادر إلى الطباعة وأشرف عليها بأكملها، وتمكّن من إنجازها، وصدرت عام ١٨٦٥، وعُرِفَتْ بترجمة فانديك^٥. أما د. الرّيجاني فيطلق عليها تسمية الترجمة البروتستانتية، ويذكر أنّ نشرها قد تمّ بالتعاون "بين مرسلي الجمعية الأميركية

١. القيس، فايز علم الدين، أثر المعلم بطرس البستاني في النهضة في لبنان، مرجع سابق، ص ١٢٢-١٢٣. يُرَاجَع أيضًا: خوري، يوسف فرما، رجل سابق لعصره، المعلم بطرس البستاني، ١٨١٩-١٨٨٣، مرجع سابق، ص ٣٤.

٢. الحاج، كمال يوسف، المؤلفات الكاملة، المجلد الحادي عشر، الفلسفة اللبنانية (٢)، مرجع سابق، ١١ موجز \ ٩٢١.

٣. من مواليد مدينة صيدا عام ١٨١٥. تلقّى، في مسقط رأسه، القرآن ومبادئ العلوم. قصد دمشق عام ١٨٤٧ والتحق بالمدرسة المرادية مدّة سنة، واتّصل بعلمائها يأخذ عنهم. انتقل من ثمّ إلى مصر، والتحق بالأزهر مدّة سبع سنوات تلقّى خلالها العلوم العقلية والنقلية. عاد إلى صيدا مكبّودًا، ومنها إلى طرابلس، ثمّ قصد بيروت وتولّى فيها "رئاسة كتابة محكمتها الشرعية"، ومن بيروت ارتحل إلى عكا وعُهد إليه بالإفتاء فيها، ثمّ عُيِّنَ مدعيًا عامًا لجبل لبنان مدّة سبعة أعوام، قبل أن ينتقل إلى الأستانة رئيسًا للمصحّحين في دائرة نظارة المعارف، فضلًا عن تولّيه التدريس في دار المعلمين الكبرى. انتهى به التطواف في بيروت، منصرّفًا للتأليف والأبحاث الفقهية، ومحرّرًا في عدد من الجرائد. وافاه الأجل عام ١٨٩٠. وللمزيد حول سيرته، يُرَاجَع: فيليب دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية، ج ١، مرجع سابق، ص ١٣٥-١٣٨.

٤. القيس، فايز علم الدين، أثر المعلم بطرس البستاني في النهضة في لبنان، مرجع سابق، ص ١٢٣. ويُحدّد القيس، في الصفحة ذاتها، ما لم يساعد البستاني في إنجازها من أعمال الترجمة بالآتي: أسفار أيّوب، والزمامر، والأمثال، والجامعة، ونشيد الأناشيد؛ ويضيف إليها نبوءات حزقيال، ودانيل، وحبقوق، وكرتيا، وصفيانا، وحجاي، وملاخي. كما يشير، في الموضوع ذاته، إلى أنّ أجور البستاني بلغت، مقابل عمله في الترجمة لمدة عشر سنوات مساعدًا عالي سميث، خمسين ألف غرش أي ما يعادل ١٩٢٣ دولارًا أميركيًا في زمانه ذلك. وكان قد سبق ليوسف فرما خوري أن حدّد، في كتابه ص ٣٥-٣٦، ما لم يساعد البستاني في إتمامه من أعمال الترجمة، فضلًا عن المبالغ المالية التي تقاضاها مقابل عمله في الترجمة.

٥. الحاج، كمال يوسف، المؤلفات الكاملة، المجلد الحادي عشر، الفلسفة اللبنانية (٢)، مرجع سابق، ١١ موجز \ ٩١٧. ويُعيّن القيس في دراسته، ص ١٢٨، العام ١٨٦٦ موعداً لإنجاز الترجمة.

لانتشار الإنجيل، ومقرّها في نيويورك، والجمعية البريطانية لانتشار الكتاب المقدّس، ومقرّها لندن. صدرت (...) بعد وفاة سميت، مُطْلِقاً، بشماني سنوات^١.

ولهذه الترجمة مزايا عديدة، إن على مستوى اللغة أو على مستوى المضمون. ويشير د. الرّيجاني، في محاضرته، إلى سمات عديدة توافرت لها. وما نوّد الإلماع إليه، هنا، هو السمة الرابعة والأخيرة منها، وهي أنّها عقدت حولها "هيئة مسكونيّة غير رسميّة، سابقة لمجامع ذي اتجاه مسكونيّ مماثل بنحو مئة عام"، إذ إنّها جمعت "كاثوليكيّة ناصيف اليازجي الروميّة، وبروتستانتية بطرس البستانيّ المارونيّة، وسنيّة يوسف الأسير الأزهرية، إلى جانب بروتستانتية سميت وفانديك الأميركيّين"^٢.

خطاب تعليم النساء (١٤ كانون الأول ١٨٤٩)

كان المناخ الاجتماعيّ، إبان هذه الفترة من القرن التاسع عشر وبعدها بزمان طويل، مناخاً ضاغطاً جدّاً على المرأة. ويمكن تلخيص واقعها، في لبنان وسوريا، بـ "حالة يُرثى لها من المهانة، لا تُذكر إلاّ بالتحقير. ولم يكن يُسمَح لها، (...)، بأن تظهر أمام الرجال أو في الأماكن العموميّة. وكانت المرأة المسيحيّة تتمتع من الحرّيّة بنصيب أوفر من نصيب أختها المسلمة، إلاّ أنّها هي أيضاً كانت تخضع لنظام الاحتجاب، وكلتاها تتساويان بالجهل العامّ، وتعانيان كثيراً من هضم الحقوق"^٣.

لقد تنبّه البستاني باكراً لمساوئ هذا الواقع، كما وعى أهميّة نصرة المرأة، وضروة رفع الغبن والظلم اللاحقين بها. وأقصر السبل وأيسرها، لتحقيق ذلك، هو مكافحة الجهل الذي كانت ترسف فيه، وتمكينها من ارتياد المدارس. وفي الرابع عشر من كانون الأوّل ١٨٤٩، ألقى خطابه الشهير المسمّى "تعليم النساء"، من على منبر "الجمعية السوريّة"، فاتحاً باب الحوار حول تعليم النساء وأهمّيته في ارتقاء الهيئة الاجتماعيّة^٤. وقد شكّل خطابه هذا فاتحة عهد جديد من النضال في سبيل تمكين المرأة من نيل أبسط حقوقها، وما زال النضال مستمرّاً - بعد انقضاء ما يقارب القرن وثلاثة أرباع القرن من الزمن - على هذا الصعيد.

١. الرّيجاني، أمين ألبرت، الترجمات العربيّة للكتاب المقدّس وأثرها في حركة النهضة، مرجع سابق، ص ١٧.

٢. الرّيجاني، أمين ألبرت، الترجمات العربيّة للكتاب المقدّس وأثرها في حركة النهضة، مرجع سابق، ص ٢٠. وللمزيد حول "بروتستانتية بيروت" - مصادرها، والأعلام الذين أنجزوها، ولغتها - يُراجع المرجع نفسه، ص ١٦ - ٢٠.

٣. حسب، هنري (Jessup, Henry)، ثلاثة وخمسون سنة في سورية، ص ٧١؛ نقلًا عن القيس، فايز علم الدين، أثر المعلم بطرس البستاني في النهضة في لبنان، مرجع سابق، ص ١٦٨.

٤. القيس، فايز علم الدين، أثر المعلم بطرس البستاني في النهضة في لبنان، مرجع سابق، ص ١٦٩. وُنشر خطاب البستاني في بيروت عام ١٨٥٣ في أعمال الجمعية السوريّة (مرجع نفسه، ص نفسها). ويذكر يوسف قزما خوري، في كتابه ص ٢٨-٢٩، أنّ البستانيّ نشر الخطاب بعد ٣٢ سنة في "الجنان" ج ١٣ (١٨٨٢)، "حاذقًا الكثير من الفقرات التي لم يبق لها إلاّ فائدة تاريخيّة". كما يذكر، نقلًا عن عدد المجلّة ذاته، أنّ الخطاب أُلقي ارتحالاً. ولمزيد من التفاصيل، حول الخطاب ومضامينه، يُراجع القيس، ص ١٦٩ - ١٧٨؛ كما يُراجع فؤاد افرام البستانيّ في العدد ٢٢ من الروائع، ص ٨٩ - ١١١.

خطابان آخران (في آداب العرب ١٨٥٩، الهيئة الاجتماعية ١٨٦٩)

بعد انقضاء فترة زمنيّة بلغت عقداً من الزمن، ارتقى البستاني منبر "الجمعية السورية" مجدداً، وألقى، "بمضور عمدة الخطب، وأمام محفل حافل من إفرنج وعرب (...)", بتاريخ الخامس عشر من شباط ١٨٥٩^١، خطبة ثانية شهيرة هي خطبة "في آداب العرب". وكما عبّر في خطبته السابقة عن رؤيته الإصلاحية لناحية تربوية تتعلق بتعليم المرأة، فقد عبّر في خطبته هذه عن رؤيته الحضارية. ولقد ورّع خطبته على ثلاثة أقسام: حالة العلوم بين العرب قبل الإسلام، وحالتها بينهم بعد الإسلام، وحالتها بينهم في الأيام التي أُلقي فيها الخطاب (١٨٥٩)^٢.

وها هو عقد آخر من الزمن ينطوي، ويُعيد انطوائه يعتلي البستاني منبر الجمعية ذاتها ويلقي، "في مساء الثلاثاء الواقع فيه ٢٩ محرم ١٢٨٦ هجرية و١١ أيار ١٨٦٩ م"^٣، خطاباً ثالثاً شهيراً هو خطاب "الهيئة الاجتماعية والمقابلة بين العوائد العربية والفرنجية" (طُبع في ما بعد في ٤٢ صفحة)^٤. ولقد عبّر، في هذا الخطاب، عن نظره "إلى رقيّ" الهيئة الاجتماعية (المجتمع)، نظرة متكاملة في جوانبها المتشعبة، داعياً إلى هجر أمراض شخّصها بالجهل، والانقسام، والتشتت، والعبث، والعادات المتخلفة، التي تجفو عنها المعرفة العلمية، والاقتصادية، والأدبية^٥.

المدرسة الوطنية في بيروت (١٨٦٣)

كانت المدارس في لبنان، إبان القرن التاسع عشر، مدارس طوائف في غالبيتها الساحقة. وكانت مدرسة عين وُرقة (١٧٨٩)، التي جعلها البطريرك يوسف اسطفان (١٧٦٦-١٧٩٣) شبيهة بالمدرسة المارونية في روما (١٥٨٤)، والتي تخرّج البستاني منها، من أشهر مدارس ذلك العصر، وقد اعتبرها- عن جدارة واستحقاق- "أمّ المدارس الوطنية في هذه البلاد"^٦. ولدى قدوم المرسلين إلى لبنان، نشطوا في تأسيس المدارس. فأنشأ الآباء اليسوعيون مدرسة عينطورة عام ١٨٣٤، ومدرسة غزير عام ١٨٤٧. وأنشأ المرسلون الأميركيون في بيروت أول مدرسة حديثة لتعليم البنات عام ١٨٣٤- وهي من أولى مدارسهم- وقد أدارتها سارة سميث، زوجة المبشر الأميركيّ عالي سميث. والفتاة الأولى التي التحقت بهذه المدرسة، وتخرّجت منها، هي راحيل عطا التي أصبحت، في ما بعد، زوجة المعلم بطرس. وراحيل هذه تبنّتها سارة سميث عندما كانت في عمر الثماني سنوات، لدى تأسيسها مدرسة بيروت عام ١٨٣٤^٧. وقد

١. مرجع نفسه، ص ١٩٣.

٢. مرجع نفسه، ص ١٩٤. ولمزيد من المعلومات، حول الخطاب، يُراجع المرجع نفسه، ص ١٩٢-٢٢٦؛ كما يُراجع فؤاد افرام البستاني في العدد ٢٢ من الروائع، ص ١١٢-١٢٨؛ ويوسف قرما خوري في كتابه ص ٤٨-٥٢.

٣. مرجع نفسه، ص ٢٣٢.

٤. داغر، يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبية، الجزء الثاني، الفكر العربي الحديث في سير أعلامه، الراحلون (١٨٠٠-١٩٥٥)، مرجع سابق، ص ١٨٤.

٥. القيس، فايز علم الدين، أثر المعلم بطرس البستاني في النهضة في لبنان، مرجع سابق، ص ٢٣١. ولمزيد من المعلومات حول الخطاب، يُراجع المرجع نفسه، ص ٢٣٢-٢٥١؛ كما يُراجع يوسف قرما خوري في كتابه ص ٦٩-٨٠ للغرض عينه.

٦. القيس، فايز علم الدين، أثر المعلم بطرس البستاني في النهضة في لبنان، مرجع نفسه، ص ٢٢٥.

٧. سيف، أنطوان، ثلاثة حكماء من جبل لبنان، بطرس البستاني- كمال جنبلاط - عادل إسماعيل، مرجع سابق، ص ٦٦.

توقّنا، في صفحة سابقة، عند مدرستيّ حاصبياً وعبيه، وما للبستاني من دور في إنشائهما. وما لبث الوطنيون أن بادروا، بدورهم، إلى إنشاء المدارس، وكان البستاني في طليعة هؤلاء المبادرين.

في خريف العام ١٨٦٣، أنشأ المعلم بطرس مدرسته الوطنية على أسس فكرية راسخة تكوّنت لديه نتيجة عوامل عديدة لعلّ من أبرزها الثقافة التي حصلها منذ شبابه الباكر، واحتكاكه بالمرسّلين، وخبرته الطويلة في مجال التعليم، ووعيه الحادّ للأساليب الصحيحة التي تدفع بالإنسان والجماعات في سبيل الرقيّ والتطوّر والتمدّن. يُزاد على ذلك إخلاصه الشديد، وتجذّره عن المصلحة الشخصية والأنايات الضيقة التي كانت تغرق البلاد والعباد، وترمي بهم في مهاوي التخلف والانحطاط. وذلك كلّ ناشئ عن الجهل، ولا سبيل إلى مكافحته إلاّ بنشر العلم والمعرفة. وربّما عجّلت أحداث العام ١٨٦٠ في شروعه في مشروعه المفصليّ هذا.

"وضع المعلم بطرس البستاني (...) مقاصد وأهدافاً لمدرسته الوطنيّة"^١، وجاهد في تطبيقها والالتزام بها. لم يجد عنها في أيّ وقت من الأوقات، ولم يرضخ لأيّ ضغوط مؤرست عليه من أجل خرفه عن مقاصده، ولم يستجب لأيّ مغريات عُرضت عليه لزعزعة يقينه؛ بل بقيّ وفيّاً لخياراته وقناعاته، وملتزمًا بها على الدوام.

وقدّ الطلبة إلى مدرسة المعلم بطرس، الوطنية اللاطائفية، من جميع الجهات. "فكان يدرس فيها اللبنانيّ والسوريّ والمصريّ والتركيّ واليونانيّ والعراقيّ والعجميّ جنباً إلى جنب". ولقد تولّى رئاستها بنفسه، وعلم فيها صفّاً باللغة الإنكليزية. وكان يخطب "في التلاميذ مرتين في الأسبوع يحثّهم على التقوى والفضيلة ومكارم الأخلاق". وكان ابنه سليم ينوب عنه في تولّي رئاسة المدرسة، وفي تعليم اللغة الإنكليزية أثناء غيابه. أمّا ساره أخته فكانت تعلم صفّاً إنكليزيّاً آخر. ولقد تولّى تدريس بقية الموادّ فريق من أكبر أعلام ذاك الزمن، نذكر منهم: الشيخ ناصيف اليازجي للصفّ العربيّ الأوّل، والشيخ خطّار الدحاح للصفّ الفرنسيّ الأوّل، فضلاً عن الشيخ إبراهيم اليازجي، والشيخ يوسف الأسير، والمعلم سليم تقلا، والمعلم يوسف الباحوط، وغيرهم. "ونجحت المدرسة نجاحاً باهراً وكافأت الحكومة العثمانيّة البستاني بوسام مجيديّ على إنشائها وزارها الولاة مشجعين"^٢.

البستانيّ والصحافة (١٨٦٠ - ١٨٧٥)

شهدت مدينة بيروت، ابتداءً من أوائل خمسينيات القرن التاسع عشر، نهضة صحافية مميّزة. ولم يلبث اللبنانيون طويلاً حتّى باتوا رواداً للنهضة الصحافية في ربوع المشرق العربيّ، وامتدّت ريادةهم حتّى بلغت المهاجر الأميركيّة. ولن ندخل في تحليل الأسباب التي أدت إلى نشوء الصحف، ودفعت باتجاه النهضة الصحافية. لكننا نكتفي بالقول إنّ البستاني واکب هذه النهضة منذ زمنها الباكر، وبادر إلى

١. القيس، فايز علم الدين، أثر المعلم بطرس البستاني في النهضة في لبنان، مرجع سابق، ص ٧٠. ولأجل المزيد من التوسّع في الإطلاع على أهداف المدرسة، ونظامها، ومناهجها التعليميّة، والعلاقة بينها وبين مدارس الإنكليز، وبينها وبين "الكلية السورية الإنجيليّة" (الجامعة الأميركيّة في ما بعد)، وبينها وبين السلطة العثمانيّة؛ فضلاً عن أهمّيّتها وأثرها، يُراجع المرجع نفسه، ص ٧٠-٨٤. وللغرض عينه، يُراجع: قرما، يوسف حوري، رجل سابق لعصره، المعلم بطرس البستاني، ١٨١٩-١٨٨٣، ص ٥٣-٦٦.

٢. رستم، أسد، لبنان في عهد المتصرفيّة، مرجع سابق، ص ١١١.

إنشاء ثلاث صحف ومجّلة واحدة تفاوتت في الفترة الزمنية التي استمرّت فيها في الصدور. وهذه نبذة عن كلّ صحيفة من صحفه الثلاث، وعن المجّلة الوحيدة التي أنشأها، وفقاً للتسلسل التاريخي لصدور كلّ منها:

١. "نفيّر سورّيّة" (٢٩ أيلول ١٨٦٠ - ٢٢ نيسان ١٨٦١)

هي صحيفة أصدرها بُعيد انتهاء الأحداث التي حصلت في جبل لبنان عام ١٨٦٠، واستمرّت في الصدور حوالي ستّة أشهر متتالية (نيسان حتّى أواخر آب). وهي بمثابة "نشرة أسبوعيّة من صفحة واحدة تتضمّن "افتتاحيّة" البستاني فقط لا غير التي يتراوح عدد أسطرها، بين عدد وعدد، بين ٢٥ سطرًا و ٧٢ سطرًا!". صدر العدد الأوّل منها يوم ٢٩ أيلول ١٨٦٠، والعدد الحادي عشر والأخير يوم ٢٢ نيسان ١٨٦١، بعد ما تأخّر فترة شهرين عن صدور سابقه^١. حملت هذه الأعداد كلّها توقيع البستاني التالي: "من حبّ للوطن"، واستهلها جميعها بندائه: "يا أبناء الوطن"، والذي يتّردّد مرارًا في بداية كلّ مقطع. وابتداءً من العدد الرابع ضمّنًا، الصادر في ٢٥ تشرين الأوّل ١٨٦٠، أخذ يُطلق على صحيفته تسمية: "وطنية"، وهكذا حتّى العدد الحادي عشر والأخير^٢.

٢. الجنان (١ كانون الثاني ١٨٧٠ - ١٨٨٦)

مجّلة نصف شهريّة، سياسيّة، أدبيّة، تاريخيّة، علميّة. عدد صفحاتها "٣٢ صفحة من القطع الكبير وعلى عمودين وانتشرت انتشارًا واسعًا"^٣. صدر عددها الأوّل في الأوّل من كانون الثاني ١٨٧٠، بعد أن حصل على ترخيص بإصدارها من راشد باشا "والي سورّيّة" (دمشق وبيروت آنذاك، ١٨٦٦ - ١٨٧١) وصديق ابنه سليم، وجعل شعارها "حبّ الوطن من الإيمان". سلّم رئاسة تحريرها إلى

١. صدر العدد العاشر أو "الوطنية" العاشرة في ٢٢ شباط ١٨٦١. يُراجع، في هذا الصدد، المرجعان التاليان: (١) داية، جان، المعلّم بطرس البستاني، دراسة ووثائق، منشورات مجّلة فكر، الطبعة الأولى، آذار، ١٩٨١، ص ١٥٠؛ (٢) الخوري، يوسف قزما، نفيّر سورّيّة، دار فكر للأبحاث والنشر، طبعة أولى، بيروت، حريف ١٩٩٠، ص ٥٥. وقد نشر المؤلفان، كلّ في كتابه (داية ص ١١٣ - ١٦٢، والخوري ص ٩ - ٧٠)، نصّ هذه "الوطنيات" نقلًا عن النصّ الأصلي الموجود في محفوظات مكتبة يافت التذكاريّة التابعة للجامعة الأميركيّة في بيروت.

٢. خوري، يوسف قزما، رجل سابق لعصره، المعلّم بطرس البستاني، ١٨١٩ - ١٨٨٣، مرجع سابق، ص ٤٠ - ٤١؛ سيف، أنطوان، ثلاثة حكماء من جبل لبنان، مرجع سابق، ص ٢٦ - ٢٧، و ص ٥٨ - ٥٩. وتقتضي الإشارة إلى أنّ فيليب دي طرازي أورد خطأ أنّها من صفتين وأنّ أعدادها بلغت ١٣ عددًا (تاريخ الصحافة العربيّة ج ١، ص ٦٤)، وكذلك فؤاد افرام البستاني (الروائع، ص ٧٧)، والأب كميل حشيمه اليسوعيّ (المؤلفون العرب المسيحيّون من قبل الإسلام إلى آخر القرن العشرين، ج ٢، دار المشرق، بيروت، لبنان، طبعة أولى، ٢٠١١، ص ١٠٧). أمّا يوسف أسعد داغر فحفل أعدادها ثلاثة عشر أيضًا (داغر، يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبيّة، الجزء الثاني، الفكر العربيّ الحديث في سبيل أعلامه، الراحلون، (١٨٠٠ - ١٩٥٥)، مرجع سابق، ص ١٨٢). والواقع أنّ العدد الصحيح لمجموع أعدادها هو أحد عشر عددًا، وهو الموجود في مكتبة يافت التذكاريّة في الجامعة الأميركيّة في بيروت، ويبلغ عدد أسطرها ٥٧٩ سطرًا (خوري ص ٤١، حاشية رقم ٤، لكنّ خوري يذكر، في متن الصفحة ذاتها، أنّ الأعداد بلغت ١٣)، وكان خوري قد جمعها وحققها وأصدرها في كتاب عن دار فكر للأبحاث والنشر، ١٩٩٠. أمّا سبب التفاوت في مجموع الأعداد، بين الباحثين، فعائد إلى أنّ البستاني أطلق على إحدى افتتاحياته، في جريدته "الجنة"، تسمية "الوطنية الثانية عشرة"، وعلى افتتاحيّة أخرى له في الجريدة ذاتها تسمية "الوطنية الثالثة عشرة" (خوري، ص ١٢١، حاشية رقم ١). وفي كتاب سابق للخوري صادر عام ١٩٩٠ - أشرنا إليه في الحاشية السابقة - يثبت نصّ الوطنية ١٢ نقلًا عن مجّلة الجنان - وليس جريدة الجنّة - ج ١ (١٨٧٠)، ص ٣٠٢ - ٣٠٣.

٣. رستم، أسد، لبنان في عهد المتصرفين، مرجع سابق، ص ٢٨٨.

ابنه البكر سليم (١٨٤٦-١٨٨٤) والذي كان يكتب أكثر مقالاتها، "وينشر في آخر كلّ عدد منها، رواية متسلسلة". وبعد وفاة سليم، تسلّمها شقيقه نجيب إلى أن توقّفت عن الصدور عام ١٨٨٦^١.

٣. الجنّة (١١ حزيران ١٨٧٠-أول حزيران ١٨٨٦)

إنّها جريدة سياسية، تجارية، أدبية، أنشأها المعلّم بطرس في ١١ حزيران ١٨٧٠، بناء على رغبة ابنه سليم الذي تولّى رئاسة تحريرها. بدأت بالصدور، في الشهر الأول، مرّة في الأسبوع. وفي الشهر الثاني أصبحت تصدر، مرّتين: الثلاثاء والجمعة. طُبعت بمطبعة المعارف، أول الأمر، ثمّ صارت "تُطبع في المطبعة الأدبية"^٢ وعندما صدرت "الجنينة"، في مطلع شباط من العام التالي، بمعدّل أربعة أعداد في الأسبوع، شكّلت وإياها ما يشبه الجريدة اليومية الواحدة. وفي عام ١٨٨١، جرى اتفاق بين المعلّم بطرس وابنه سليم من ناحية، وبين صهره خليل سركيس^٣ صاحب "لسان الحال" من ناحية ثانية، على ضمّ "الجنان"، و"الجنّة"، و"لسان الحال" في "إدارة واحدة، ومطبعة واحدة. وإتّما بقيت كتابة كلّ صحيفة متعلّقة بصاحبها كما كانت سابقاً". وبعد وفاة سليم في ١٣ أيلول ١٨٨٤، "تحوّل (امتيازها) إلى شقيقه نجيب (١٨٦٢-١٩١٩)" الذي استمرّ في إصدارها مع "الجنان" مدّة سنتين، ثمّ اضطرّ إلى إيقاف صدورها بعد اشتداد "الرقابة على الجرائد" إثر اعتقال "مدحت باشا" وتعليق العمل بالدستور^٤.

٤. الجنينة (٢ شباط ١٨٧١-الأول من حزيران ١٨٧٥)

هي جريدة يومية، سياسية، تجارية. رئس سليم البستاني تحريرها، وكان ينشئ فصولها بمساعدة نسييه سليمان البستاني (١٨٥٦-١٩٢٥) مترجم إلياذة هوميروس. أمّا صدورها فكان أربع مرّات في الأسبوع، وتتصدّر صفحتها الأولى الأخبار السياسية من ولايات السلطنة العثمانية، فضلاً عن الأخبار الدولية. والصفحة الثانية تنقل "الأخبار البرقية والتلغرافات الواردة من أوروبا والأمصار البعيدة، وأخبار الصراع بين السلطنة العثمانية، والأمبراطورية الروسية". وعلى الصفحتين الثالثة والرابعة يجد القارئ "أسعار القرايطيس المالية، وأخبار التجارة. وكان الباب التجاري فيها متقناً ومطوّلاً يماثل الملحق الاقتصاديّ في صحفنا المعاصرة". توقّفت "الجنينة" عن الصدور في الأول من حزيران ١٨٧٥، بسبب "نفثي الهواء الأصفر في بيروت وبعض أنحاء سورية"، أي بعد أربع سنوات وأربعة أشهر من

١. سيف أنطوان، مرجع نفسه، ص ٣٣؛ داغر، يوسف أسعد، مرجع نفسه، ص ١٨٢-١٨٣؛ القيس، فايز علم الدين، مرجع نفسه، ص ١٠١. وللزيد من المعلومات حولها يُراجع القيس ص ١٠٤-١٠٧.

٢. دي طرازي، فيليب، تاريخ الصحافة العربية، الجزء الثاني، بيروت، المطبعة الأدبية، ١٩١٣، ص ١٠.

٣. وُلد خليل سركيس في ٢٢ كانون الثاني ١٨٤٢ في عبيه، وتوفي في عام ١٩١٥. تعلّم صناعة الطباعة وأنشأ، عام ١٨٦٨، مطبعة المعارف مع سليم البستاني. تزوّج عام ١٨٧٣ لوزا إحدى كريمةات المعلّم بطرس. وعام ١٨٧٥ رغب عن شراكة سليم، وأسّس المطبعة الأدبية، وجريدة لسان الحال ومجلة المشكاة. وجّه عنايته أيضًا "إلى سبك الحروف التي اشتهرت بالجوادة والإتقان في القارّات الخمس". أصدر الروزنامة السورية عام ١٨٦٨، "وهي ثاني روزنامة عربية في المعمور". عام ١٨٩٨ غطّى وقائع زيارة أميرطور ألمانيا لأنحاء سوريا وفلسطين في "رسائل متواصلة برقية وبريدية نُشرت تباعاً في جريدة لسان الحال". عام ١٩١١ أصيب بمرض "نصّب الشريانات" فاضطرّ لاعتزال معترك العمل، معتمداً على ابنه الوحيد رامز سركيس. (دي طرازي، فيليب، تاريخ الصحافة العربية، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ١٢٩-١٣٨).

٤. داغر، يوسف أسعد، مرجع نفسه، ص ١٨٣؛ القيس، فايز علم الدين، مرجع نفسه، ص ١٠٥-١٠٦.

تاريخ صدورها. "وكان بدل الإشتراك السنويّ فيها عشرة فرنكات"، وبدل اشتراكها مع "الجنتّة" ١٧ فرنكاً، ومع "الجنان" و"الجنتّة" ٣٣ فرنكاً. أمّا رسم شعارها فكان من صنع الحفّار المشهور ميخائيل فرح اللبناني^١.

ونذكر، في تعقيب خاصّ منّا، أنّ البستانيّ أطلق على صحفه الثلاث هذه التسميات لأنّه "بستانيّ"، والبستانيّ محتاج "لنظير" يراعيه. و"الجنان" في صيغة الجمع تمثّل "مراعاة النظير" هذه، وكذلك مفردتها "الجنتّة". وكذا القول في صيغة التصغير المعتمّدة في تسمية "الجنيّة". "نظائر" ثلاثة راعت، إذّا، البستانيّ في مسمّيّاتها الثلاثة في صيغ الجمع (الجنان)، والمفرد (الجنتّة)، والتصغير (الجنيّة).

البستانيّ المعجميّ (١٨٥٥-١٨٦٩)

يُعبّر المعلم بطرس أوّل من عمد إلى وضع معجم عصريّ في اللغة العربيّة. وقد اعتمد، في وضعه، على أشهر المعاجم العربيّة القديمة، لاسيّما "القاموس المحيط" للفيروزآبادي. لكنّه يميّز عن القدامى بأمور ثلاثة على الأقلّ. الأوّل اختلافه عنهم في ترتيب موادّ معجمه ترتيباً يُراعي الحرف الأوّل من الثلاثيّ المجرّد، في حين راعت المعاجم القديمة الحرف الأخير منه. وفي الألفاظ المزيدة تُجرّد اللفظة من زوائدها، ثمّ تُطلب في باب حرفها الأوّل. أمّا الألفاظ التي فيها حروف مقلوبة عن أخرى، فتُطلب في موضع الحرف الأصليّ المقلوب عنه. وقد أراد البستانيّ، باعتماده هذا النهج، أن يسهّل موارد الاستفادة على طالبيها من معجمه. والأمر الثاني الذي يميّز عمله المعجميّ جمعه، في معجمه، مصطلحات العلوم والفنون، فضلاً عن ألفاظ العامّة، وكلام المولّدين، والكثير من القواعد والشوارد. وقد نبّه، في ذلك كلّه، على أنّه ليس من أصل اللغة. يبقى الأمر الثالث والأخير وهو أخذ الشواهد من المصادر القديمة والحديثة^٢.

أطلق البستانيّ على قاموسه تسمية "محيط المحيط". فكأنّه شاء له أن يكون "محيطاً" يحيط "بمحيط" اللغة العربيّة، مع كلّ ما تعنيه لفظة محيط من اتّساع وشمول. ولقد أنجزه "في مجلّدين ضخمين في السنتين ١٨٦٧ و ١٨٦٩"^٣. وكان البستانيّ قد لاحظ، خلال عمله في تأليفه، أنّ معجمه سيكون من الاتّساع في الموادّ، والضخامة في الحجم، بحيث سيمنع على العديدين الاستفادة منه. فعمد، خلال مراحل التّأليف، إلى وضع مختصر عنه أصدره بعده مباشرة وعنوّنه "قطر المحيط". وأهدى البستانيّ "قطر المحيط" إلى "الخدويّ الأعظم سعيد باشا" (خدويّ مصر) (...). ممّول نشر هذا الكتاب^٤. ويُذكر أنّ عمل البستانيّ على معجمه استغرق أربعة عشر عاماً

١. دي طرازي، فيليب، تاريخ الصحافة العربيّة، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ٢٢؛ يُراجع أيضاً: القيس، فايز علم الدين، أثر المعلم بطرس البستاني في النهضة في لبنان، مرجع سابق، ص ١٠٧-١٠٨. ونشير هنا إلى أنّ الباحث علم الدين ذكر خطأً، على الصفحة ١٠٧ من كتابه، أنّ "الجنيّة" هي ذات صفحتين وليس أربع صفحات كما يظهر من كلامه عمّا تتضمّنه الصفحتان الثالثة والرابعة، على ما ورد معنا أعلاه.

٢. مرجع نفسه، ص ١٤٤-١٤٥.

٣. رستم، أسد، لبنان في عهد المتصرّفة، مرجع سابق، ص ١١٠.

٤. سيف، أنطوان، ثلاثة حكماء من جيل لبنان، مرجع سابق، ص ٥٢.

(١٨٥٥ - ١٨٦٩). ونال عليه مكافأة السلطان العثماني عبد العزيز "بجائزة ماليّة تبلغ ٢٥٠ ليرة مجيديّة ومنحه الوسام المجيديّ الثالث".^١

بُعِيد صدر قاموس "المحيط"، توالى صدور الاعتراضات عليه. وأوّل المبادرين إلى الاعتراض كان أحمد فارس الشدياق، وقد اتسمت ردوده بالعنف والقساوة، فضلاً عن التحامل والطعن الشخصيّين في كثير من المواضيع. وبدوره، بادر الشيخ إبراهيم اليازجي إلى الاعتراض على بعض مضامين المعجم ومواده. وقد شارك الأب أنستاس الكرمليّ (١٨٦٦ - ١٩٤٧)، بعد فترة، بحملة الاعتراضات هذه، وأدلى بما لديه من اعتراضات وتصويبات رأى أنّها الأصحّ.^٢

البستاني الموسوعيّ

في هذا القطاع الخاصّ من قطاع التأليف، قطاع الموسوعات أو دوائر المعارف (Encyclopédies)، تظهر ناحية جديدة غير مسبوقة في العربيّة في ريادة البستاني النهضويّة. وقد بادر إلى خوض غمار التأليف الموسوعيّ بعد فراغه من إنجاز "محيط المحيط". وكان قد وعد، "في آخر محيطه هذا بتأليف معجم لأسماء الأعلام المشاهير. ثمّ رأى أن يتوسّع في مشروعه هذا فأخذ في تأليف دائرة المعارف".^٣

حدّد البستاني "دائرة المعارف" بأنّها "قاموس عامّ لكلّ فنّ ومطلب". وبالفعل، فإنّ دائرة المعارف هي كذلك. إنّها "تحتوي على ما اشتملته علوم العصر، وتغني مقتنيها عن مكتبة كبيرة".^٤

قبل أن يباشر البستاني العمل على "دائرة المعارف"، أنشأ "فريق عمل" خاصّ لمعاونته. وضمّ هذا الفريق، فضلاً عن ابنه سليم ونجيب وابن عمّه سليمان البستاني، مترجمون ومراسلون وباحثون من أشهر أعلام زمانه. وكلّ من أعدّ بحثاً "للدائرة"، أو مادّة من موادّها، صدر فيها حاملاً اسمه.^٥

ولا ريب أنّ إصداراً من هذا النوع يتطلّب تمويلاً ضخماً قد تعجز عنه كبريات المؤسسات. ولقد اعتمد البستاني، في تمويل مشروعه، "على مساهمة المشتركين بأعداد الدائرة. وكان بدل الاشتراك ليرة ذهبيّة عثمانيّة لكلّ عدد. كما اعتمد على التبرّعات التي قدمتها الحكومة الخديويّة المصريّة، والسلطان العثمانيّ، ووالي سورّيّة".^٦

١. دي طرازي، فيليب، تاريخ الصحافة العربيّة، الجزء الأوّل، مرجع سابق، ص ٨٩ - ٩٠.

٢. حول المزيد من اعتراضات الأعلام الثلاثة على معجم البستاني، يُراجع: القيس، فايز علم الدين، أثر المعلّم بطرس البستاني في النهضة في لبنان، مرجع سابق، ص ١٤٦ - ١٤٩؛ كما يُراجع يوسف قزما خوري في كتابه ص ٨٥ - ٩٠.

٣. رستم، أسد، لبنان في عهد المتصرفيّة، مرجع سابق، ص ١١٠. ويشير رستم، في الصفحة ذاتها من كتابه، إلى دائرة معارف تاريخيّة وجغرافيّة "مرتبّة ترتيباً هجائياً"، اتفق سليم شحاده وسليم الخوري على تصنيفها، وأصدر الجزء الأوّل من القسم الجغرافيّ عام ١٨٧٥. وللمزيد حول هذه الناحية، يُراجع المرجع نفسه، ص ٢٧٣.

٤. القيس، فايز علم الدين، أثر المعلّم بطرس البستاني في النهضة في لبنان، مرجع سابق، ص ١٥٦. وحول ما تتضمنه "الدائرة" من موضوعات كثيرة ومتنوعة، يُراجع المرجع نفسه، ص نفسها؛ كما يُراجع يوسف قزما خوري في كتابه ص ٩٨ - ١٠٦. وعن الخطة المعدّة لإتمامها، وآراء أصحاب الأقلام المعاصرة فيها، يُراجع خوري ص ١٠٦ - ١١٥.

٥. مرجع نفسه، ص ١٥٠ - ١٥٢.

أصدر البستاني ستة أجزاء من دائرة المعارف. لكنّ الأجل وافاه وهو لا يزال يعمل على السابع. فأكمّله ابنه سليم وأصدره، وتمكّن من إصدار الثامن أيضًا. لكنّ المنية أدركته وهو في عزّ شبابه. فأكمل أخوه نجيب العمل، يعاونه العلامة سليمان البستاني. واستمرت أجزاء الدائرة في الصدور حتى الجزء الحادي عشر، وتوقّف العمل عليها عام ١٩٠٠، "غير متجاوز حرف "العين" ^٢.

وفاته

ذكرنا، في الفقرة السابقة، أنّ الأجل أدرك المعلم بطرس وهو لا يزال يعمل على الجزء السابع من "دائرة المعارف". وبيان ذلك أنّ نوبة قلبية فاجأته عشية الأول من أيار ١٨٨٣، "ولم تمهله إلا القليل" ^٣، فتمكّنت منه وأودت بحياته، وهو في الرابعة والستين من سني حياته، وفي ذروة عطائه. ويذكر شاعر الخوري في "مجمع المسرّات" أن المنية أدركت البستاني وهو يعمل على لفظة "دايرة"، وينصح من يريد معرفة ترجمته مطوّلاً أن يعود إلى هذه اللفظة في "الدائرة" ^٤. أقيم له مأتم حافل في بيروت، حضره "آلاف من الخلق، وطنيين وأجانب"، فضلاً عن ذوي المناصب، وأولي العلم والفضل. ورثاه الشعراء والخطباء، ورجال العلم والأدب وأبرزهم صديقه فاندريك، وكتبت عنه الصحف مشيدة بمآثره وعلمه وأدبه. ودُفن "في مقبرة الكنيسة الإنجيلية في بيروت، قرب طريق الشام" ^٥، ولا يزال ضريحه قائماً هناك إلى اليوم.

"الجائزة البستانية"

بعد مضيّ فترة سنتين على وفاة البستاني، وتقديراً لخدماته العلمية الجليلة، "أعلن المجمع العلميّ الشرقيّ في بيروت" — وكان البستاني عضواً شرف فيه — عن تخصيص جائزة "تذكّاراً" له، وتكون قيمتها النقدية "ثلاث ليرات فرنسيّة تُعطى كلّ سنة لمن يكتب أفضل مقالة عنه في موضوع يقترحه المجمع". وإنفاذاً لإعلانه، حدّد المجمع موضوع ذلك العام وعنوانه: "الوسائل لترقية المعارف في سورية". لكنّ فكرة الجائزة لم تنفّذ "بسبب انقراط عقد أعضاء المجمع العلميّ الشرقيّ" ^٦.

الذكرى المئويّة الأولى لمولده

إنّ أوّل من تنبّه لوجوب إحياء هذه الذكرى هو جرجي نقولا باز "مؤرّخ الشهرين والشهيرات من بني قومنا". وقد دعا إلى إحيائها في مقالة له نشرها في صحيفة "لسان الحال" أواخر تشرين الأوّل عام ١٩١٩. وبالفعل، فقد أُقيم الاحتفال " مساء الجمعة في ٢٦

١. مرجع نفسه، ص ١٥٢. ويذكر سيف، في كتابه، أنّ "الخدويّ المصريّ اسماعيل باشا دفع للمعلم بطرس، عام ١٨٧٥، خمسة آلاف ليرة ذهبيّة عثمانية كدفعة أولى، بدلاً عن الاشتراك بألف نسخة من "دائرة المعارف"، لم يأت البستاني على ذكرها": سيف، أنطوان، ثلاثة حكماء من جبل لبنان، مرجع سابق، ص ٥٢-٥٣.
٢. القيس، فايز علم الدين، أثر المعلم بطرس البستاني في النهضة في لبنان، مرجع سابق، ص ١٥٠. وحول دوافع إنشاء "الدائرة" وتمويلها، والمصادر التي اعتمدت في التأليف ومنهجيتها، فضلاً عن ترتيب محتواها، وترتيب ورود الأعلام فيها، يُراجع المرجع نفسه، ص ١٥١-١٥٦.
٣. البستاني، فؤاد أفرام، الروائع، المعلم بطرس البستاني، مرجع سابق، ص ٧١.
٤. الخوري، شاعر، مجمع المسرّات، مرجع سابق، ص ١٠٣.
٥. القيس، فايز علم الدين، أثر المعلم بطرس البستاني في النهضة في لبنان، مرجع سابق، ص ٥٢.
٦. خوري، يوسف فرما، رجل سابق لعصره، المعلم بطرس البستاني، ١٨١٩-١٨٨٣، مرجع سابق، ص ١١٨. تراجم مجلّة المقتطف، مجلّد ٩ (١٨٨٥)، ص ٥٦١-٥٦٢؛ وأيضاً: مجلّة الجنان، مجلّد ١٦ (١٨٨٥)، ص ١٦٣.

كانون الأوّل سنة ١٩١٩ في نادي مدرسة الكليّة الأميركيّة"، وبلغ عدد المتكلّمين فيه "٦٥ خطيبًا بين عالم، وكاتب، وشاعر، ومهندس، وصحافيّ، ومحامي (كذا)، وطبيب، وتسع من السيّدات الأديبات... وهكذا فقد اجتمع علماء وأدباء القرن العشرين بكرّمون ويعظّمون نابغة القرن التاسع عشر".^١ وتجدد الإشارة إلى أنّ البستاني هو أوّل من أقيم له مثل هذه الذكرى في المشرق العربيّ.

١. البستاني، فؤاد افرام، الروائع، المعلم بطرس البستاني، مرجع سابق، ص ٧٢.